زبيدة الهاشمية

درة الأيامى وتاج الملوك

(زوجة هارون الرشيد)

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة

للطباعة والنشر والتوزيع

وحي المصيطبة
شارع حبيب أبي شهلا
بناء السكن
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢
فاكس: ٨١٨٦١٥ (٩٦١١)
ص.ب: ١١٧٤٦٠
بيروت - لبنان

Resalah Publishers

Tel: 319039 - 815112
Fax: (9611) 818615
P.O.Box: 117460
Beirut - Lebanon

Email:
resalah@resalah.com

Web Location:
Http://www.resalah.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م

حقوق الطبع محفوظة ©٢٠٠٠م. لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه. ولا يسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

نساءٌ حبيبات

زُبيدة الهاشمية

دُرّة الأيامى وتاج الملوك

(زوجة هارون الرشيد)

رضوان السيد عبول

مؤسسة الرسالة
ناشرون

المقدمة:

لا يستطيع الكاتب في النصِّ التاريخي أن يغيرَ الحدثَ أو يتصور ما جرى من أحداث، دون الرجوعِ إلى المصادر الرئيسية، ويستوثق منها أو يراجع الروايات التاريخية ويحللها ليعتمد الأوثقَ والأدق ويبعد ما يراه مجانباً للصواب، ويؤكد تصوره بالحقائق فتحليلُ الروايات ضرورةٌ.

وإذا أراد أن يعالج النصَّ التاريخي بأسلوب أدبي ليقربه من القارئ لابد أن يكون قد اطلعَ على كثير مما خطته يدُ الأدباء الذين جعلوا أحداثَ التاريخ مادةً لكتاباتهم.

لقد كان الرافعيُّ أستاذاً، عالج الحدثَ التاريخي بأسلوب أدبي ساحرٍ، وكان العقادُ فيلسوفاً حين أخذ على عاتقه كتابة التاريخ أو تراجم العمالقة بأسلوبه الأدبي.

فكتابةُ التاريخِ بأسلوبٍ أدبي، تحتاج إلى عمل جادٍّ، بعيد عن الخيال، وتحتاج إلى قدرةٍ لمتابعة الأحداثِ التاريخية كما يتصورها الكاتبُ من خلال ما اطلعَ عليه، وما رجحه.

وهذه قصةُ «زبيدة» قصةٌ تاريخية دخلت الوجدان، وأعملت في القلب ونفذت إلى أعماقه، وأعملت في الذاكرةِ فكان للقلم منها نصيب.

وفقنا الله لما يحب ويرضى، وقدم لنا الخير، والله المستعان.

رضوان دعبول

دمشق ٢٨ شوال ١٤٢٠
٣/ شباط ٢٠٠٠

زبيدة بنت جعفر بن المنصور

أَمَةُ العزيز؛ أمُّ جَعْفر، زبيدة بنت جعفر بن المنصور الهاشميّة، العباسيّة؛ ولم تلد عباسيّةٌ خليفةً قطُّ إلاّ هي...

أوَ مِثْلُها امرأة في بني العباس؟.

سيّدة ربّات الخدور، وزوج الرشيد، وأمّ ولده الأمين.

وأبناء زوجها: المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل..

كتب الإمام الذهبي يقول: «زبيدة السيدة المحجبة أَمَة العزيز، وتُكنّى «أم جعفر»، كانت عظيمة الجاه والمال، وجدّها المنصور هو الذي لقبها «زبيدة» لبضاضتها ونضارتها[1]....

(١) الذهبي/ محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء مؤسسة الرسالة - بيروت - ١٠/ ٢٤١.

طالع السعد:

وُلِدَت السيدةُ «زبيدة» سنة (١٤٩ هـ) في خلافة جدّها المنصور ـ مؤسِّس الدولة ـ وتقلّبت في النعيمِ بين أحضان والديها، ومات والدُها، حيث وافته المنيةُ في عز شبابه، وهي في الثالثة من عمرها، فكفلها جدُّها المنصور مع إخوتها، وصار يكرمها، ويقدمها على أقرانها وقريناتها، ويحرص على تربيتها وإسعادها، ليُتْمها وحبِّه الشديد لأبيها الفقيد، مما أكسبها عقلاً ورأياً قد صارعت بهما حَدَثان الدهر وأيامه...

وفي عامها العاشر توفيّ جدُّها، فكفلها عَمُّها «المهدي» والد «هارون الرشيد» وأفاضَ عليها محبة وحناناً، وأوكل بها من النساء المتعلمات مَنْ يسهرن على تهذيبها وتثقيفها، فنشأت كأحسن ما تنشأ عليه بناتُ الملوك خلقاً وأدباً.

كان مولدُها بعد مولد «هارون» ببضعة أشهر في قرية تدعى «حديثة دحلة» وتسمى أيضاً «حديثة الموصل» وكانت هذه القريةُ من أجمل قرى العراق ذات بساتين وأشجار، كثيرةُ الصيد والطيور، وهي قريبةٌ من مدينة الموصل على الضفة اليمنى من نهر دجلة، حيث كانت أسرتُها تتمتع بنزهتها

في موسم الربيع الجميل في «قصر حرب» الذي شيده المنصور وأهداه لابنه جعفر الكبير.

كانت «زبيدةُ» بارعةَ الجمال، رقيقةَ القسمات، ساحرةَ العينين، فاحمةَ الشعر، هيفاءَ القامة، ناعمةَ البشرة بيضاء.

قرأت القرآنَ، وحفظت الكثير منه، ودرست الأدبَ، وروت الشعر، ونظمته، وتلقنت الأخبارَ والسير، والتاريخ، فازداد اعتزازُها بإسلامها وعروبتها وهاشميتها، وتحلت بالتقوى، وحب الخير، وصنع المعروف.

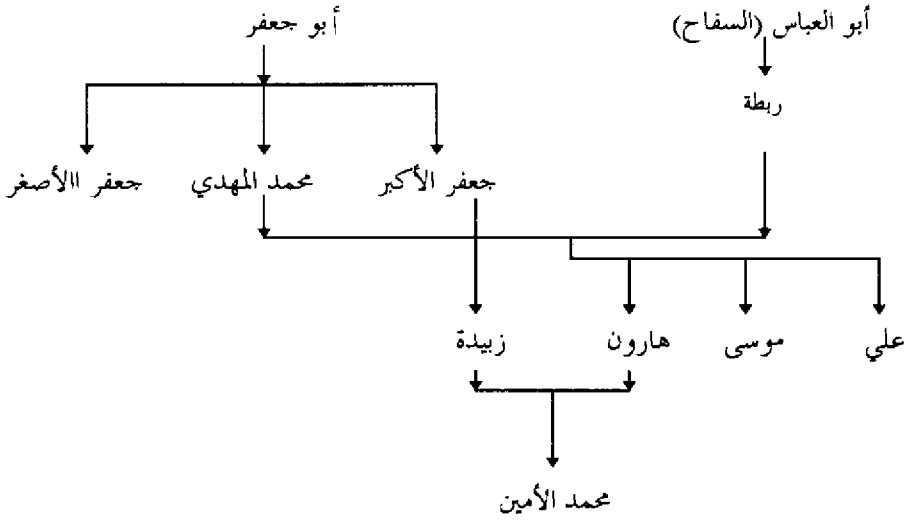
أبو جعفر
أبو العباس (السفاح)
ربطة
جعفر الأصغر
محمد المهدي
جعفر الأكبر
زبيدة
هارون
موسى
علي
محمد الأمين

كانت كريمة اليد إلى أبعد حدود الكرم والجود، فأحبتها القلوبُ، وقربت إليها النفوس، وبالخصوص بنو العباس فضلاً عن أفراد أسرة المنصور. والذين كان منهم «هارون» رفيق الصبا..

تطورت العلاقةُ بين زبيدة وابن عمها هارون من حب صبياني بريء إلى عشق وافتتان، ثم إلى رغبة بالزواج. ورأت «الخيزران» والدةُ «هارون» حبَّ ولدها وميله إلى زبيدة فأيدته وشجعته، وكاشفَ «هارون» أبويه في زواجه من «زبيدة» فلم يجدا ما يحولُ دون تحقيق هذه الرغبة في إسعاد الحبيبين، فأُعلنت خطبتُهما بين الناس، وتأهب القصر لإعداد حفلات الزواج الذي تعين موعده في شهر صفر سنة (١٦٥هـ ـ ٧٨١م). وأصرّت الخيزران والدةُ العروس على أن يتم ذلك في مهرجانات ضخمة، وخصصت لهذا مبلغاً ضخماً من ثروتها الخاصة، غير ما سينفق من خزائن المهدي والد الرشيد.

وأما ما كان في أيام العرس فقد جاء في كتاب «الديارات»[1] أن: زوّج المهدي ابنه هارون، بابنة أخيه زبيدة، فاستعد لها مالم يستعد لامرأة قبلها

(١) الشابشتي/ علي بن محمد «الديارات»، ص ١٠١.

من الآلة وصناديق الجوهر، والحلي، والتيجان والأكاليل، وقباب الذهب والفضة، والطيب والكسوة، وحشر الناس من الآفاق، وفرقَ فيهم من الأموال أمراً عظيماً، فكانت الدنانير تجعل في جامات فضة، والدراهم في جامات ذهب، ونوافج[1] المسك والعنبر الغالي في بواطن زجاج، ويفرق ذلك على الناس، ويخلع عليهم خلع الوشي المنسوجة...

وفي ليلة الزفاف، أُضيئت الأنوار في قصر «محمد بن سليمان العباسي» زوج العباسة بنت المهدي[2] الذي خُصِّص لسكن العروسين، بعد تجميله وتأثيثه على أيدي أمهرِ الصناع والفنانين.

وهكذا دخلتْ زبيدةُ إلى بيت جديد تحقق حلماً لها تنظر حولها لترى «بغداد» عاصمةَ الرشيد غارقةً في زينتها وترمق زوجها بنظرات الحب، وتقترب منه فيحدثها عن أيامِ الصبا، ويذكرها، ثم يذكر لها كيف كان يسترق النظر إليها من بعيد، وهي تجلسُ مع أخواته أترابها.

وكيف... وكيف...

---

(١) النافجة: وعاءُ المسك.

(٢) العباسة بنت المهدي: أخت هارون الرشيد.

وهي تبتسم، وتحدثه أنها كانت تلمحُه بدلال، وبأنها كانت ترقب هذا وتغضُّ الطرف عنه . . . .

ويضمها إلى صدره مدركاً دلالَ النساء، وإعراضهنَّ . . وحياءَهُنَّ . . ومكرهنَّ . . .

المشهد الأول لزوج الرشيد:

كانت بغداد لا تـزال تتحـدث عـن عـرس «الرشـيد» و«زبيـدة»، ولا زال الناسُ يرفلون بأثواب الأعياد، فما هـي إلا أيـام حتـى وصـل خـبرٌ عن قيامِ أحد قواد الدولة المعروفين «عبد الكبير بن عبد الحميد»[1] بغزو الروم عام (١٦٤هـ - ٧٨٠م) حيث كان قد كلف بحمايـة الثغـر، وكـان معـه ثلاثـة آلاف مقـاتل، وكـانت روحُ الشـباب، والاستشـهاد تملـئ نفسَه، فهو وريث شديد المراس من أبناءِ الخطاب. فقـد سـار مـن درب «الحدث» فقابله البطريقُ الرومي بعسكر في نحـو تسـعين ألـف محـارب بينهم عددٌ من فرسان الأرمن ورجال دينهم...

دارت رحى حـربٍ عنيفـة بـين الطرفـين صمـد فيهـا المسـلمون أول الأمر، ولكن عدم التكافؤ بالقوى أمالَ كفة القتال عليهم، فقُتل منهـم خلقٌ كثير، ولـم يصمـد عبـد الكبير أمـامَ المـوت، فهـرب تاركـاً وراءه فلولَ جيشه طعمة للسيوف والحراب، ولم يفلت منهم غيرُ نفرٍ قليـل، تشردوا في البلاد، وعاد بعضُهم إلى بغداد يُحدّث الخليفة بما جرى.

(١) من ولد زيد أخي عمر بن الخطاب.

ونادى المنادي، ليلتحق الرجالُ في جيش الثأر، واجتمعَ جيش قوامه مئة ألف مقاتل. نُظِّم الجيشُ، وجهز، وقسم إلى فرق، وجُعلت القيادة العليا بيد «يزيد بن مزيد الشيباني».

وانتظر الناسُ يترقبون صدور تعيين أميرِ الحرب، فلا بد أن يكون من آل بيت الخليفة...

وقفت «زبيدةُ» وهي لا تزال في أيام عرسها تسمع الإشاعات، ومنها أنَّ أميرَ الحرب سيكون «هارون» ردّدت في نفسها ... هارون ... زوجي..!! ركضت إليه تستطلعُ الخبر هل صحيح؟.... هل صحيح؟... لم تتمالك نفسها أخذت تلح عليه. وتنظر إليه متوسلة.. وهدأ الرجل قلق عروسه يسألها: من أين لك هذا؟

وردّدت على مسامعه بأنَّ الخليفة كان قد أرسله بالأمس القريب إلى بلاد الروم، وعاد منتصراً، واليوم لابد أن يكون هو..

لقد أصابت «زبيدة» من «هارون» وبدت على ملامحه آثارُ القلق.. فهو لا يزال ابن التاسعة عشرة من عمره.

إلا أنه عادَ وطمأن نفسه يبعد عنها وساوسه إذ لا يعقل أن يعتمدَ عليه أبواه في مثل هذه الشدائد دون غيره . .

واستعرضَ في نفسه الرجال الأبطال بين يدي والده الخليفة منهم من مارس ميادين القتال حتى نبغَ فيها وألِفَها وألِفته من أمراء بني العباس وغيرهم . . . . .

ولم يمض وقتٌ كبير حتى نادى المنادي بأمير الحرب . . إنه هارون . .

سيدة القصر:

ومضت الأيامُ، وتوفيت «الخيزران» أمُّ الرشيد ببغداد سنة (١٧٣هـ/ ٨٧٩م)، وحلّت مكانها «زبيدة» لتصبح سيدة القصر، لقد أصبحَ زوجُها الخليفة، وهي سيدة قصر الخلافة، ولكنها لم تتبذل بالتدخل في شؤون الدولة كالخيزران، ولم تهتم قليلاً أو كثيراً فيما يدور بينَ زوجها وبين وزرائه وقواده البرامكة سوى علمها بأنَّه يحبهم ويثقُ بهم، ويفرط في تقديرهم ورفع مكانتهم، ولم يكن يهمها ذلك بقدر ما يهمها عملُ الخير، وحب الجميع، ولا فرق عندها بين مَنْ كان بالأمس من حزب موسى الهادي ضد يحيى البرمكي والخيزران أو بالعكس[1].

إنها تحب زوجَها وتوالي من يواليه، وتكره من لم يكن إلى جانبه، وتعمل على رفعِ مكانة خلافته بقدر المستطاع، وتناست ما كان من أمر ابن عمها «موسى الهادي» أخو «هارون» فقد عطفت على أولاده التسعة اليتامى الصغار كزغب القطا. وحنت عليهم ورعتهم رعايةَ الأم لأولادها.

(١) قصة الصراع على السلطة بين الهاشميين وبالخصوص العباسيين والبرامكة كانت على أشدها في تلك الأيام.

وكانت تحاولُ التأثير على زوجها في إعادة المياه إلى مجاريها السابقة، والتخفيف من حدة التوتر في الخصومات السياسية، وتقريب المبعدين المغضوب عليهم، من البرامكة شيئاً فشيئاً إلى حظيرة البلاط.

وهذه لفتةٌ، لو عرفها أهلُ الملك والسياسة، وعملوا بها بأسلوبٍ وعقلانية لأراحوا واستراحوا... ولكن!!.

لقد أقامت زمناً في «قصر الخلد» إلى جانب زوجها ترقبُ الأحداثَ وتساعد - قدر المستطاع - ومن خلف الأستار في مواكبة الأمور. إلا أنها بنتْ لنفسها قصراً في الرصافة سمته «دار القرار» وانتقلت إليه، وهي هادئةٌ مطمئنةٌ وولدت للرشيد ابناً سمته «محمد المهدي» أنشدَ فيه مروان بن أبي حفصة حين ولَدَتهُ:

لله درُّك يا عقيلة جعفر ... ماذا ولدت في النّدى والسؤدد
إن الخلافة قد تبيّن نورها ... للنّاظرين على جبين محمّد
إنّي لأعلم أنّه لخليفة ... إنْ بيعةٌ عُقدت وإن لم تُعقد

وهكذا ظلت زبيدة تتابع أمور السياسة والحكم، مترقبة تأمل بولاية العهد لابنها «محمد الأمين» وهي لا تفتأ تقرب إليها من ترى في تقربه ما يحقق مصلحة ولدها في الوصول إلى الخلافة بعد الرشيد.

بداية الصراع:

تولى «الرشيد» الخلافةَ، وليس له وليُّ عهدٍ يرث العرشَ بعده، وكان من عادة الخلفاء أن يأخذوا البيعةَ لولي العهد، لما قد يُفاجئه الموتُ بغتة، فتتمزق رقعةُ الدولة؛ لعدم وجودِ بيعة سابقة.

نظر «الرشيد» فلم يجدْ أمامه إلا ولديه «عبدَ الله بن مراجل» و«محمداً بنَ زبيدة»، وكانا يومَ تولى الخلافة طفلين رضيعين، ولم يألفِ المسلمون بيعةً لأحد بهذا العمر، فترك البحث في هذا الأمر فهو لا يريد إسناده لرجلٍ من غيرِ أهل بيته.

وفي سنة (١٧٣هـ ـ ٨٧٩م) عاودَ «الرشيد» التفكير في الأمرِ، واستشار خاصته، فأشاروا عليه بتولية أحدهما. وكان المرشح لهذا «عبد الله» بوصفه الأكبر، وكان يومئذٍ في حجْرِ جعفر البرمكي. إلا أنَّ «زبيدة» وقفت كالعنقاءِ بالمرصاد، وأصرت أن تكونَ البيعةُ لابنها محتجةً بأنه هاشمي الأبوين، وليس ابنَ جاريةٍ كأخيه «عبد الله» وحرضت شيوخَ بني هاشم، وبعضاً من رجال الحاشية، الذين

يذكرون أياديها البيضاء عليهم حين قرَّبتهم على الرغم من خصومة البرامكة لهم.

وكانت حوارات حادة شغلت القصرَ، ورجالات الدولة، وانقسمت الآراءُ.

«زبيدةُ» ومنْ ورائها أنصارُها، وفيهم الفضلُ بن يحيى البرمكي المشرف على تربية ابنها «محمد».

و«جعفر بن يحيى البرمكي» يدافعُ عن حقِّ «عبد الله بن مراجل» ويستخف رأي خصومه.

وتأزمَ الموقف، فسدَّت «زبيدةُ» الطريق في وجه زوجها، وطلب «الرشيدُ» «يحيى بن خالد البرمكي» والد «جعفر والفضل» وكان قد اعتزلَ تلك الضجة، فلم يعطِ رأيه خشيةَ أن يسيء إلى «زبيدة» فتغضب منه، ويكون لها شأنٌ معه.

واجتمعَ «الرشيد» و«يحيى» طويلاً وكان النصر لـ: «زبيدة» وابنها «محمدٍ» على الرغم من اقتناع الوالد الفقيه بأفضليةِ عبد الله المأمون

وأهليّته، وفي هـذا يقـول: والله إنّ فيه حـزمَ المنصـور ونسـكَ المهـدي، وعـزّةَ نفـس الهـادي، ولـو شئت أن أقـولَ الرابعـة منّي لقلـت، وإنـي لأقدِّم محمداً بنَ زبيدة، وإني لأعلم أنَّه متبَّع هواه، ولكـن لا أسـتطيعُ غير ذلك، وقال:

لقد بانَ وجهُ الـرأي لـي غـير أننـي ... غلبتُ على الأمر الذي كـان أحزما

وكيـف يُـرَدُّ الـدَّرُّ فـي الضـرع بعدمـا ... تـوزع حتـى صـار نهبْـاً مقسَّـما

أخافُ التواءَ الأمر بعـد اسـتوائه ... وأن يُنقـضَ الأمـرُ الـذي كـان أُبرمـا

ولاية العهد:

وقفتْ «زبيدةُ» في قصرها راضيةً، وقد حسمت المعركة لصالحها ترقبُ من بعيد زوجها «الرشيد» وقد جلس حولَه أمراءُ آل بيته، ورجال الدولة من حاشية وقواد وفقهاء، وانعقد المجلسُ يوم ٦ شعبان (١٧٣هـ ـ ٨٧٩م). وأُخرجَ «محمدٌ بن زبيدة» إلى الحاضرين، وأُوقفَ على وسادةٍ بجانب أبيه، فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم جلس..

وقام «عبد الصمد بن علي» كبير بني العباس سناً، وهو عم لأبي جعفر المنصور وخطب فقال:

«أيها الناسُ، لا يَغرنَّكم صغرُ السنِّ، فإنها الشجرةُ المباركة، أصلُها ثابت وفرعها في السماء».

ووقف بعضُ الأمراء من بني هاشم، وتحدَّثوا بما يناسب المقام، وأُخذت البيعةُ لهذا الطفل، ولقبه أبوه «محمد الأمين».

وفي سنة (١٧٥هـ ـ ٨٨١م) ضمَّ إليه الولاية على بلاد الشام والعراق، وجعل هذه الولاية تحت إدارة «الفضل بن يحيى البرمكي»

مربيه. وعمَّت الفرحةُ، ووقف الخطباءُ يلقون الخطبَ، والشعراء يلقون القصائد، ووُزِّعت بِدَرٌ[1] الدراهم والدنانير، وفار المسكِ[2] وبيض العنبر[3]، مع كثير من الهدايا الثمينة.

وقال الشاعر «سَلم بن عمرو الخاسر»:

قد وفّق اللهُ الخليفةَ إذ بنى ... بيتَ الخلافةِ بالهجان الأزهرِ

فهو الخليفةُ عن أبيه وجده ... شهدا عليه بمظهرٍ وبمخبرِ

قد بايعَ الثقلان مهديَّ الهدى ... لمحمد بنِ زبيدة ابنةِ جعفرِ

لقد كان انتصاراً لزبيدة، ونُقلتْ هذه القصيدةُ لزبيدة مع وصفٍ لما جرى في المجلسِ، فأمرت بأن يُملأ فمُ الشاعر بالجواهر فَمُلِئ.

(١) جمع بَدْرَة، وهي: كيس المال.

(٢) أي: وعاء المسك.

(٣) العنبر، من الطيب: روث دابة بحرية.

أمّ وليّ العهد:

اختار «الرشيد» لولديه «محمداً المهدي» و«عبد الله» أحسن المعلمين، وأفضل المؤدبين، فكان «محمدٌ» في حجر «الفضل بن يحيى البرمكي»، و«عبدُ الله» في عناية «جعفر بن يحيى البرمكي».

وكانْ يحرصُ على تأديبهما، ويتابع المعلمين يجتمعُ بهم واحداً واحداً، يرشدُهم إلى اتباعِ الطريقة التي يرغب هو في تعليمها، ويستمعُ إليهم بحرص وكان يقول لهم:

«إنَّ أميرَ المؤمنين قد دفعَ إليك مهجةَ نفسه، وثمرةَ قلبه، فصيِّرَ يدكَ عليه مبسوطةً، وطاعتَك واجبةً، فكن له حيثُ وضعك أمير المؤمنين، أقرئه القرآنَ، وعرِّفهُ الآثار، وروِّه الأشعار، وبصِّره في مواقعِ الكلام وبدأه، وامنْعهُ الضحك إلا في أوقاته، وخذْهُ بتعظيم مشايخِ بني هاشم إذا دخلُوا عليه، وارفعْ مجالس القواد إذا حضروا مجلسَه، ولا تمرنَّ بكَ ساعة إلا وأنت مغتنمٌ فائدةً تفيده إياها، من غير تخرق به، فتميت ذهنَه، ولا تمعنْ في مسامحته ليستحليَ الفراغَ ويألفه، وقوِّمه ما استطعتَ بالقرب والملاينة، فإنْ أباها، فبالشدة والغلظة»...

وكان يبعثُ ولديه إلى المساجد حيث يلقي أساتذةُ العلم في حلقاتهم المحاضرات، والدروس، والمواعظ على الناس، ويحضرُ لهما أهلَ الكلام والنظر؛ ليعلموهما ما يتفقُ والسن الذي هما فيه. . ويصحبهما إلى ميادينِ الرياضة واللعب، ليشاهدُوا أبطال القوى والفروسية، ويحضرهما إلى مشاهدة الكتائب والجيوش، وهي تَستعرضُ بأسلحتها وخيولها مهارتَها أمام أميرِ المؤمنين وعظماء الدولة.

أما «زبيدةُ» الأم فكانت مدفوعةً بعاطفة الأمومة تجاه وحيدها تذلِّلُ له وسائلَ الأنس، وتمنع أساتذتَه ومؤدبيه من أن يزعجوه في الدرسِ والمطالعة، ويضيقوا عليه في التهذيبِ والتدريبِ والتثقيف، خوفاً من إجهاد فكره، وحرصاً على أن لا يضيق صدرُه، فكانت ترسل إلى معلميه، وتوصيهم بأنْ لا يرهقُوه. وتقول لهم: «حاجتي إليكم، أن ترفقوا بمحمد، فإنَّه ثمرةُ فؤادي، وقرة عيني، وأنا أرق عليه رقةً شديدةً[1]».

فكان من جراء ذلك أنْ نشأ ابنُها مدللاً، يستهويه اللعبُ والسمر، وينفرُ من كلِّ ما يُرهقُ الفكرَ، ويكدُّ الذهنَ، بعكس أخيه الذي شبَّ

(١) الدينوري، أحمد بن داود، «الأخبار الطوال»: ٣٨٣.

على حبِّ العلـم، وتحلّى بـالصبرِ والجلـد مـن أجـل الفـائدة الفكريـة، واتصفَ «عبد الله» بالذكاء، والحافظة القوية، مع الأناة والحزم.

وكان «جعفر البرمكي» وزيرَ الرشيد لا يـتركُ فرصـةً تمـر إلا اغتنمَهـا للإشادة بذكاء «عبد الله» حتى كاد الرشيدُ يغيرُ فكرَه إلا أنَّ زبيدةَ كـانت واقفةً بالمرصاد، وحولَها عددٌ كبير من بني العبـاس يؤيدونهـا في ابنهـا، والشعراءُ ـ أبواق الدعاية ـ قد ملؤوا سمعَ الناس بمدح «الأمين»، والثناء عليه، ووصفه بالفضائلِ والمكارمِ إرضاءً لأمِّه وطمعاً بنوالهـا العظيـم، حتى استقرَّ الرأيُ العام على أنـه هـو ـ لا غـيره ـ صـاحبُ الخلافـة بعـد أبيه، وحتى أيقنَ الرشيدُ بـأنَّ انتزاعَهـا منـه وإعطائهـا لأخيـه سـيحدثُ مشاكل وصعوبات، لها ذيولٌ لا تعرف نتائجُها.

جاءت «زبيدةُ» في أحد الأيـام تعـاتبُ زوجهـا «الرشـيد» فيمـا تسـمع وتلومه على ما في نفسه من هذا الأمر حتى أزعجته.

فقـال لهـا: «ويحـك إنَّ ابنَك قـد زينَه في عينـك مـا يزيـن الولـدَ في عـين والديه، فاتقي الله، فوالله إنَّ ابنك لأحبُّ إليَّ، ولكنها الخلافةُ لا تصلـح إلا لـمَنْ كـان لهـا أهـلاً، وبهـا مستحقاً، ونحـن مسؤولون عـن هـذا الخلـق،

ومأخوذون بهذا الأنام، فما أغنانا أن نلقَى الله بوزرِهم، وننقلب إليه بإثمِهم. . . » فقالت: يا أميرَ المؤمنين، ابني أحقُّ بما تريد، وأولى بما لديك. . .

إنَّها الأنثى. . إنَّها الأم، تتغلب عليها العاطفةُ فتسوقها ولا ترى إلا من خلالها. هذا المنظار الذي يغير اللون ويحرف النظر فلا ترى فيه الأم إلا وليدها. . . ولو كان عبداً حبشياً.

مثال نادر:

تربَّت الخليفةُ بزوجه الغيور في آفاق الخلافة، وكانت معاشرته لها معاشرةَ تربيةٍ ودعوة إلى التخلق بأخلاق الرفق، والحزم، والتضحية، والاستقامة، والاعتدال؛ ولا شكَّ أنَّ طبيعة حبِّ هارون الرشيد لابنة عمِّه وزوجه «زبيدة» التي يخصها بحبِّه من بين جميعِ النساء ليختلف عن طبيعةِ حبِّ عمرَ بنِ أبي ربيعة للنساء جميعاً؛ لسببٍ جوهري يتعلَّق باختلاف طبيعة الرجلين: فالرشيدُ هو الرجلُ الذي يعلم طبعَ المرأة وهو يخالفها في طبعها، ويستجيش ضميرها، فيعلم من مجاوبتها كيفَ تضطرب نفسُها، وتتقلّب هواجسها وخواطرها.

أما ابنُ أبي ربيعة، فهو الرجلُ الذي يعلم ما في طبع المرأةِ لجانبٍ أنثوي في طبعه هو؛ وشتَّان ما بين الرجلين..

وكانت محاورةٌ دارت بين الخليفة، وأم جعفر بعدَ كتابةِ الشروط على الأخوين[1]، إبَّان عودته من حجّه سنة (١٨٨هـ).

(١) كتابة الشروط على الأخوين، حصلت سنة (١٨٦هـ) حين حج الرشيد ومعه وليا عهده الأمين والمأمون، وكتب الشرطين بينهما وعلقهما في الكعبة.

قالت له: «ما أنصفتَ ابنَك محمداً حين وليته العراق، وأعريته من العدد والقواد، فَصيَّرت ذلك إلى عبد الله دونه».

فقال لها: «وما أنتِ وتمييز الأعمال، واختيار الرجال، إنّني ولَّيت ابنَك السلم، وعبد الله الحرب، وصاحبُ الحربِ أحوجُ إلى الرجالِ من السلم، ومع هذا فأنا أتخوف ابنك على عبدِ الله، ولا نتخوف عبد الله على ابنك[1]».

ولا بدَّ من الإقرارِ هنا بعاملِ الشخصيةِ التي تفرز المرأة أيضاً من سائرِ النساء، وتلك هي «زبيدة» سيدة القصرِ والملكة صاحبة التاج.

قال المؤرخون والأدباء:

«اجتمع للرشيد مالم يجتمع لأحد من جدٍّ وهزل: وزراؤُه البرامكة، لم يُرَ مثلهم سخاء وثروة، وقاضيه أبو يوسف، وشاعرُه مروان بنُ أبي حفصة، كان في عصره كجرير في عصره، ونديمه عم أبيه العباس بن محمد، وحاجبُه الفضل بن الربيع أتيَه الناس وأشدُّها تعاظماً، ومغنيه إبراهيمُ الموصلي، واحد عصره في صناعته، وضاربه

(١) المسعودي، علي بن الحسين مروج الذهب ٦/ ٣١٧.

زلزل، وزامره برصوما، وزوجته أم جعفر أرغبُ الناس في الخير، وأسرعهم إلى كلِّ برٍّ، وهي أسرعُ الناس في المعروف، أدخلت الماءَ الحرم بعد امتناعه من ذلك. . . .[1]».

(١) رواية الأتابكي، يوسف بن تغري بردي في النجوم الزاهرة ٢/ ٢١٢.

أبواق الرحيل:

سمعت «زبيدةُ» بعزمِ «الرشيد» للحج، فطلبت منه أن تشاركه وتسير إلى جانبه، فلم يمانع، فأقسمت بأن تبذلَ جزءاً كبيراً من مالها وثرائها الضخم في سبيلِ الخير، والتقرب إلى الله، وراحت تستعدُّ لذلك..

وشاعَ الخبر في البلاد، فتهيأ من وجوه الأقاليم جماعاتٌ كبيرةٌ للحج في تلك السنة، واستقبالِ الرشيد في مكة التي سيأتيها ماشياً حافياً[1].

وفي أوائل شهرِ شوال من عام (١٨٨هـ ـ ٨٠٤م) خرج الرشيدُ من مدينة الرقة محرماً، ـ وكانت تلك آخرَ حجَّاته ـ ومعه زبيدةُ بنتُ جعفر تمشي بجانبه وراء ستار من أعينِ الحاشية والحرس الذي يراقبهما عن بعد.

ولما وصلَ أرضَ الحجاز، خرج سكانُ الحرمين ووفود الحج إلى استقباله بحفاوةٍ بالغةٍ، مهللين، مكبرين، استبشاراً بهذه البادرة

(١) أقسم الرشيد أن يحج ماشياً، فطلب إليه القواد أن يؤجل ذلك ريثما يمهدوا الطريق فأبى، فكان أن رتبوا الأمر فوضعوا سرادقاً كل أربعة أميال للراحة وحج الرشيد، وهكذا كان...

الفريدة من نوعها، والتي شدت عُرَى الدين برباطٍ روحيٍّ متين، فوزعَ فيهم الهدايا، وقسمَ الأموالَ باسمه واسم زبيدة، حتى لم يبق في ذلك اليومِ من سكان الحرمين فقيرٌ جائع، والتفتت زبيدةُ بنت جعفر إلى المشاريعِ الخيرية التي عزمت على تحقيقها، فأمرت بحفر البركِ في الصحارى على طريقِ الحج، وشيدت بجانبها البيوت لراحة الحجاج على نمطِ البيوت التي بناها عمرو بنُ مسعدة[1] في طريقِ الرشيد. وبنت قصراً ضخماً في مكةَ سمي باسمها، وعمَّرت دارَ أبي يوسف المشهور، ثم دعت عامل مكة وأمرته بأن يجريَ تلك العين التي يشرب منها المكِّيون داخلَ المدينة.

فقال لها: إن المسافةَ بين هذه العين وبينَ مكة اثنا عشر ميلاً، وإنَّ نفقاتِ ما تريدينه ضخمةٌ تبتلعُ المال الجسيم. فقالت له كلمتها المشهورة:

«أجرِ الماءَ إلى مكة، ولو كلفتك ضربةُ المعول ديناراً».

(١) عمرو بن مسعدة: وزير المأمون، وأحد الكتّاب البلغاء. وكان يوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي في أيام الرشيد (ت ٢١٧ هـ).

فكان لها ما أرادت، وجرى الماءُ إلى مكةَ وسميت العينُ باسمها، ولا تزالُ حتى اليوم، ثم نادت كاتبها الخاص، وأوعزت إليه بأن يجمعَ أراملَ الحرمين، وأيتامهم، ويوزعَ فيهم خمسةَ آلاف درهم باسمِ ابنها محمد الأمين، وليِّ عهدِ الرشيد، وما زالت تعمِّر وتتصدق حتى قيل: إنها أنفقت ثمانيةً وخمسين ألف ألف درهم في حجتها تلك.

وضجَّ الجميعُ بالثناء والحمد لله، ومن ثم للرشيد، وسرت أخبارُهما في البلاد.

ورآها بعضُ الصالحين في المنام بعد وفاتها، فقال لها: ما فعل الله بك؟ فقالت: غفرَ لي في أولِ معولٍ ضرب في طريقِ مكة.

الخَطْب الجَلَل:

في سنة ثلاث وتسعين ومئة، بينما كانت «بغدادُ» عاصمة دار الخلافة تتأهَّبُ وتتزيَّن لاستقبال أمير المؤمنين؛ إذْ سَادَ الصمت المدينة، وضجَّت المآذن بترتيل آيات الذكر الحكيم..

﴿كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ سبحان الحيّ الذي لا يموت...

- إنَّ أميرَ المؤمنين «الرشيد» قد قضى نحبه في طوس... «اللهم انفعنا بالإحسان، واغفر لنا الإساءة، يا مَنْ لا يموت، ارحم من يموت[1]...».

لقد ماتَ الزوجُ الذي كان يحب زبيدةَ كثيراً ويكرمها غاية الإكرام، وكانت هي شديدةَ البرِّ به، والحرص على رضاه، ولم يكن يمنع عنها شيئاً من كلِّ ما تطلب من نفقة، وما يتعلق بها وبغيرها مما يسرها وينفعها، غير أنَّها بعد تلك الكرامة والعزة والأبهة، أصبحت بعد موت الرشيد في حالة سيئة من الكآبة والذل، وخفض الجناح[2].

---

(١) من قول «الرشيد» رحمه الله.

(٢) «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور»: زينب بنت يوسف، فواز العاملي ٢١٥/ ٢١٦. دار المعرفة لبنان.

خرجَ الرشيدُ يوماً من عند زبيدةَ وهو يضحكُ، فقيل له: مِمَّ تضحك يا أمير المؤمنين؟ فقال: دخلتُ اليوم إلى هذه المرأة ـ يعني زبيدة ـ فأقَلْتُ عندها وبتُّ، فما استيقظت إلى على صوت ذهبٍ يُصبّ، قالوا: هذه ثلاث مئة ألف دينارٍ قدمت من مصر، فقالت زبيدة: هبها لي يا ابن عم، فقلت: هيَ لك، ثم ما خرجت حتى عَرْبَدت عليَّ، وقالت: أيَّ خير رأيته منك؟

وقال الرشيدُ مرة للشاعر «المُفَضَّلِ الضَّبِّي[1]: ما أحسن ما قيل في الذئب، ولك هذا الخاتمُ، وشراؤُه ألفٌ وست مئة دينار. فأنشد قولَ الشاعر:

ينامُ بإحدى مُقْلَتيه ويتّقي ... بأخرى الرزايا فَهوَ يقظانُ نائمُ

فقال: ما قلتَ هذا إلا لتسلبنا الخاتم. ثم ألقاه إليه. فبعثت زبيدةُ فاشترته بألفٍ وست مئة دينار، وبعثت به إلى «الرشيد»، وقالت: إنِّي رأيتُك معجباً به. فردَّه إلى «المفضل» والدنانير، وقال: ما كنَّا لنهب شيئاً ونرجع فيه.

---

(١) هو المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبي، أبو العباس، علاَّمة بالأدب والشعر، من أهل الكوفة. له: «المفضليات»، «معاني الشعر»، (ت١٦٨هـ). «الأعلام» ٧/ ٢٨٠.

واختلفَ «الرَّشيد» و«أُمُّ جعفر» في اللّوزينج والفالوذج أيُّهما أطيبُ، فمالت «زبيدةُ» إلى تفضيلِ الفالوذج، ومالَ «الرشيد» إلى تفضيلِ اللّوزينج، وتخاطرا على مئة دينار، فأحضرا «أبا يوسف» القاضي، وقالا له: يا «يعقوب» قد اختلفنا في كذا على كذا، وكذا فاحكم فيه، فقالَ: يا أمير المؤمنين: ما يُحكَمُ على غائبٍ وهو مذهبُ أبي حنيفة، فأحضر له جامَيْن من المذكورَيْن، فطفقَ يأكلُ من هذا مرَّة، ومن هذا مرَّة، وتحقَّق أنَّه إنْ حكم للرَّشيد لم يأمن غضبَ «زبيدة»، وإن حكمَ لها لم يأمن غضب «الرَّشيد»، فلم يزل في الأكلِ إلى أن نصَّف الجامين، فقال له «الرشيد»: إيه «أبا يوسف»، فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما رأيتُ خصَمَيْن أجدلَ منهما، كلَّما أردت أن أسجِّل لأحدهما أدْلَى الآخر بحجَّته، وقد حرْتُ بينهما، فضحكَ «الرَّشيدُ»، وأعطاه مئة الدينار، وانصرف مشكوراً[1].

وقال «الرَّشيد» لزبيدةَ يوماً: أتزوجُ عليك؟

قالت «زبيدةُ»: لا يحلّ لك أن تتزوَّج عليَّ.

قال: بلى.

---

(١) ابن خلكان، أحمد بن بكر بن أبي بكر، «وفيات الأعيان»: ٢/ ٣١٦ دار صادر بيروت.

قالت: بيني وبينك ما شئت.

قال: ترضين بـ«سفيان الثَّوري»؟

قالت: نعم، فوجَّه إلى «سفيان الثوري»، فقال «الرَّشيد»: إنَّ «زبيدةَ» تزعمُ أنه لا يحلُّ لي أن أتزوجَ عليها، وقد قالَ الله تعالى: ﴿فانْكِحُوا ما طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثْنى وَثُلاثَ ورُباع﴾، ثم سكت، فقال «سفيان»: تمِّم الآية، يريد أن يقرأ: ﴿فَإن خِفْتُم أنْ لا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣] وأنت لا تعدل، فأمرَ لسفيان بعشرة آلاف درهم، فأبى سفيانُ أن يَقْبَلَها[1].

(١) الأصبهاني، أحمد بن عبد الله، أبو نعيم «حلية الأولياء»: ٦/ ٣٧٨.

موت الرشيد وتولية محمد الأمين:

ماتَ «الرشيد» الزوجُ المحب، وذرفت الزوجةُ دمعات حرّى على زوجها، مات الحبيبُ والرفيق، وحبيب الصبا، ورحلَ بعد مرضٍ ألَمَّ به، وفارقَ الديار والأهل، وترك البلادَ والعباد ليلقى ربه.

وقدمت «زبيدةُ» من الرقة مُحَمّلة خزائنها، وما حوته من التحف والقماش، وتلقاها ولدها «الأمين» في الأنبار[1] احتراماً لها وتقديراً.

ونظرتْ في الوجوه . . . منكسرةَ النفس . . . . لقد ماتَ الزوجُ الذي كان يحب «زبيدةَ» كثيراً ويكرمها غاية الإكرام، وكانت هي شديدةَ البرِّ به، والسعي إلى رضاه، ولم يكن يمنع عنها شيئاً من كلِّ ما تطلب من نفقة، ويهتم بكل ما يسرها، غير أنَّها بعد تلك الكرامة، والعزة والأبهة، أصبحت في حالة سيئة كئيبة حزينة خَفيضة الجناح[2].

وتولَّى «الأمينُ» الخلافةَ، ومرت الأيام، وبدأ الصراعُ بين الأخوين «الأمين» و«المأمون».

---

(١) الأنبار: مدينة قريبة من بغداد.

(٢) العاملي: زينب بنت يوسف فواز، «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» ص ٢١٥، ٢١٦، دار المعرفة، لبنان.

وذات يوم؛ دخلت «زبيدةُ» باكيةً على ولدها «الأمين» وقد أُحيط بالعدو فقال لها: إنَّه ليس بجزعِ النساء وهلعهنَّ عقدت التيجان، والخلافةُ سياسةٌ لا تسعها صدور المراضع وراءك.

ومرت الأيامُ، واشتد الصراعُ بين الأخوين، وتمكن «طاهر بن الحسين» من قتل ولدها فكان سبباً في قتله، ورُوِّعت الأيّمُ الهاشمية بمقتل ولدها ثمرة فؤادها.

لقد تمكَّن طاهر بن الحسين من قتلِ ولدها الأمين، فإذا بأركانِ الخلافة تتداعى... وإذا بالأمورِ قد انقلبت..

فماذا كان من شأنِ أَمَةِ العزيز..؟

لقد أصابَ القاتل كبد الوالدة فمزّقه، لكنّ قلبها المنطوي على حبِّ ابن عمها الفقيد لم يزل فياضاً بحرارة الإيمان، فإذا بالسكينة تتنزّل عليها، وإذا بالطمأنينة تسكب جلالها في قلبها فتثبّتها.

لكنّ ألم الجرح وكوامن النفس لا تعدم وسيلتها في استثارة الثكلى المفجوعة، فتنطلق الكلمات فوّارة من صميمها، وتستحيل شعراً جيّاشاً في رثاء ابنها:

أودى بألفين من لم يترك الناسا فامنح فؤادك عن مقتولك الباسا

لما رأيت المنايا قد قصدن له أصبن منه سواد القلب والراسا

فبت متكئاً أرعى النجوم له أخال سنته في الليل قرطاسا

والموت كان به والهم قارنه حتى سقاه التي أودى بها الكاسا

رزئته حين باهيتُ الرجالَ به وقد بنيت به في الدهر آساسا

فليس مَنْ مات مردوداً لنا أبداً حتى يردَّ علينا قبلَه ناسا

فلما قرأها المأمونُ بكى وقال: أنا الطالبُ بثأرِ أخي قتلَ الله قتلته.

من مآثر «زبيدة»

ذكر المؤرخون أنَّه لما قتل محمدٌ الأمين دخل إلى زبيدة بعض خدمها فقال: ما يجلسك وقد قُتِلَ أمير المؤمنين «محمد»؟

فقالت: ويلك وما أصنعُ؟.

فقال: تخرجين فتطلبين بثأره، كما خرجت «عائشةُ» تطلب بدم «عثمان».

فقالت: إخسأ لا أُمَّ لك، ما للنِّساءِ وطلب الثأرِ ومنازلة الأبطال؟!.

ثم أمرتْ بثيابها فسودت، ولبست مسحاً من شعرٍ، ودعت بدواةٍ وقرطاسٍ، وكتبت إلى المأمون[1]:

لخيرِ إمامٍ قام من خيرِ عنصر ... وأفضل سام فوقَ أعوادِ منبر

لوارثِ علم الأولين وفهمهم ... وللملكِ المأمون من أمِّ جعفر

كتبتُ وعيني تستهلُّ دموعُها ... إليك ابن عمي من جفوني ومحجري

يعزُّ على هارونَ ما قد لقيته ... وما نالني من ناقصِ الخلق أعور[2]

وقد مسَّني ضرٌّ وذلٌّ كآبةٍ ... وأرَّق عيني يا ابن عمي تفكّري

---

(١) كحالة، عمر رضا، أعلام النساء مؤسسة الرسالة - بيروت - ٢٧٢ عن مروج الذهب.

(٢) تعني طاهر بن الحسين.

سأشكو الذي لاقيته بعدَ فقده إليك شكاة المستهام المقهر
وأرجو لما قد مرَّ بي مذ فقدته فأنتَ لبَثِّي خيرُ ربٍّ مغير
فأخرجني مكشوفةَ الوجه حاسراً وأنهب أموالي وأحرقَ أدؤري
فإن كان ما أسدى لأمرٍ أمرته صبرت لأمرٍ من قدير مقدّر
تذكر أميرَ المؤمنين قرابتي فديتُك من ذي حُرمة متذكر

فلما قرأ «المأمون» شعرها بكى، ثم قال: اللَّهم إني أقول كما قال أميرُ المؤمنين «علي بن أبي طالب» كرَّم الله وجهَه، لما بلغه قَتْل «عثمان»: والله ما أمرتُ ولا رضيتُ. اللهمَّ جلل قلبَ طاهر[1] حزناً.

واعْتذَرَ إليها منْ قتل أخيه «محمد» وقال: لست صاحبَه ولا قاتله.

فقالت: يا أمير المؤمنين إنَّ لكما يوماً تجتمعون فيه، وأرجو أن يغفرَ اللهُ لكما إن شاء الله.

وفي رواية الخطيب البغدادي أنَّ زبيدةَ قالت للمأمون عند دخوله بغداد:

«أهنئكَ بخلافة قد هَنَّأتُ نفسي بها عنك قبلَ أن أراك، ولئن كنتُ قد فقدتُ ابناً خليفة؛ لقد عُوِّضْتُ ابناً خليفةً لم ألده، وما خسر مَن اعتاض مثلك، ولا ثكلتْ أمٌّ ملأت يدها منك، وأنا أسألُ الله أجراً على ما أخذ،

(١) طاهر بن الحسين.

وإمتاعاً بما عوّض».

ثم أخذ «المأمونُ» ـ بعد ذلك ـ يزيدُ في تكرمة «زبيدةَ» وأسرتها فكان يوجه إليها في كلِّ سنة بمائة ألف دينار جدداً وألف ألف درهم[1].

وآثارُ «زبيدةَ» باقيةٌ ومشتملةٌ على عمارةٍ عظيمة مما يتنزه برؤيتها على يمينِ الذاهب إلى منى من مكةَ، ذات بنيانٍ محكَم تقصر العبارة عن وصفِ حسنه.

ووصفَ اليافعي في القرن الثامن للهجرة تلكَ العين، فقال: إنَّ أثارَها باقيةٌ ومشتملةٌ على عمارة عظيمة عجيبة، مما يتنزه برؤيتها على يمين الذَّاهب إلى منَى من مكَّة، ذات بنيانٍ محكَم في الجبال، تقصر العبارةُ عن وصفِ حُسْنه، وينزل الماء منه إلى موضعٍ تحت الأرض عميق، ذات درج كثير جدا، لا يوصل إلى قرارِه إلاَّ بهبوط كالبير، يسمونه لظلمته يفزعُ بعضُ الناس إذا نزل فيه وحدَه نهاراً فضلاً عن الليل[2].

وقال ابنُ جبير بعد أن ذكرَ المصانع، والبرك، والآبار، والمنازل التي من بغداد إلى مكةَ: إن كلَّ ذلك من آثار «زبيدةَ»، فانتدبت لذلك مدة

(١) كحالة، عمر رضا، «أعلام النساء»: ٢/ ٢٣ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ.

(٢) كحالة، عمر رضا، «أعلام النساء»: ٢/ ٣٧ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ.

حياتها، فأبقتْ في هذه الطريق مرافقَ ومنافعَ تعمُّ وفد الله تعالى كلَّ سنة من لدن وَفاتها إلى الآن، ولولا آثارُها الكريمةُ في ذلك، لما سُلكت هذه الطريق، والله كفيلٌ بمجازاتها، والرضى عنها[1].

ويُنسب إلى «زبيدة» مسجدُ «زبيدة أم جعفر» ببغداد، كان قريباً من مسجد الشَّيخ «معروف الكرخي»، وقد اندرسَ سنة ١١٩٥هـ، وكان هذا المسجدُ واسعاً وطيدَ البناء قويَّ الأركان، ولما بنى سليمان باشا الكبير والي بغداد سورَ الجانب الغربي، استعملت أنقاضه في بناءِ السور، ولم يبقَ من ذلك المسجد سوى قبرِ «زبيدة»، وعليه قبةٌ مخروطيةُ الشَّكلِ من نوادر الفنِّ المعماري.

وينسبُ إليها (الْمُحدَث)، وهو منزلٌ في طريقِ مكَّةَ بعد النقرة، على ستة أميال منها، فيه قصرٌ وقباب متفرقة، وفيه بركةٌ وبئران ماؤهما عذبٌ، وينسب إليها (العُنابَة)، وهي بركةٌ لزبيدة بعد قباب على ثلاثة أميالٍ تلقاء سميراء، وبعدَ توز، وماؤُها ملحٌ غليظٌ، وتُنسب إليها بركةُ أم جعفر، وهي في طريقِ مكةَ بين المغيثة

(١) ابن جبير، محمد بن أحمد رحلة ابن جبير: ص ١٦٥ دار صادر ـ بيروت ـ.

والعذيب، ويُنسب إليها القنيعة، وهي بركةٌ بينَ الثعلبية والخزيمية بطريق مكَّة، وينسب إليها الْحَسنيُّ، وهو بئر على ستة أميال من قَرَوْرى قرب معدن النقرة، وينسب إليها الزبيدية، وهي بركةٌ بينَ المغيثة والعذيب، وبها قصرٌ ومسجدٌ عمَّرتهما «زبيدةُ».

وكان في قصرها من الجواري نحو مئة جارية، كلُّهنَّ يحفظن القرآن، وكان يُسمَعُ لهنَّ في القصر دويٌّ كدوي النحلِ.

وفاتها:

كانت وفاتُها ببغداد في جمادى الأولى سنة (٢١٦هـ) ووَرَد أنَّها رؤيت في المنامِ فسُئلت عمَّا كانت تصنعه من المعروف والصدقات، وما عملته في طريقِ الحج، فقالت: ذهبَ ثوابُ ذلك كله إلى أهله، وما نفعَنا إلا ركعاتٌ كنت أركعهنَّ في السَّحَر...

رَحِمَكِ الله أمَّ جعفر، وأدخلكِ فسيحَ جنَّاته...

لقد كنتِ من النساءِ الحبيبات، الأثيراتِ على النفس، إنَّه البيتُ الطيبُ الذي يفوحُ بريحِ المسكِ.

المراجع

١ـ تاريخ بغداد ١٤/ ٤٣٣ .

٢ـ حلية الأولياء ٦/ ٣٧٨ .

٣ـ البداية النهاية ١٠/ ٢٢٢ .

٤ـ الديارات للشابشتي ١٠١ .

٥ـ المسعودي (في مواضع مختلفة) .

٦ـ النجوم الزاهرة ٢/ ٢١٣ .

٧ـ وفيات الأعيان (في مواضع مختلفة) .

٨ـ أعلام النساء : عمر رضا كحالة (في مواضع مختلفة) .

٩ـ الدر المنثور : ٢١٥ .

١٠ـ سير أعلام النبلاء : ١٠/ ٢٤٠ .

١١ـ رحلة ابن جبير : ١٦٥ .

١٢ـ الأخبار الطوال الدينوري .

الأسئلة

س١ـ ما الاسم الحقيقي لـ «زبيدة» بنت جعفر، ولماذا غَلَب عليها لقب زبيدة. ؟

س٢ـ عاشت أمّ جعفر في أوج الدولة العباسية، وتقلّبت في ظروف وأحوال شتى من النِعَم والمِحَن. . .

هل كانت «زبيدة» عظيمة في كل مواقفها؟ وما علاقة شهرتها ورجاحة عقلها بظروف نشأتها وتربيتها؟

س٣ـ الكرم والجود صفة لازمة للسلالة الهاشمية من قديم الزمان.

ما ترتيب زوجة الرشيد في رأيك؟ وهل تستطيع استعراض بعض آثارها؟.

س٤ـ عندما دخلت زبيدة باكية على ولدها الأمين وقد أحيط بالعدو، قال لها ولدها: «إنه ليس بجزع النساء وهلعهن عقدت التيجان، والخلافة سياسة لا تسعها صدور المراضع وراءك. .»

والسؤال: هل هذه المقولة «للأمين» تفسّر ما قد ارتآه الخليفة

«الرشيد»، وغُلب على أمره فيه، حين عقد لولده «الأمين» الولاية وقدمه على أخيه؟

س٥ـ هناك نوع من المواقف يلتزمها الإنسان في حياته، يستطيع بعدها أن يلقي بكل أعماله في البحر، ثم يقف بهذا العمل أو الموقف الخالد وحده.

هل في جواب «زبيدة» «إخسأ لا أمّ لك»؛ لمن دخل عليها يحرضها على طلب دم ولدها، ثم في صنيعها يوم دخل «المأمون» بغداد: «أهنئك بخلافة قد هنأت نفسي بها عنك...». ما يشهد لها بذلك؟.

الفهرس

المقدمة	٥
زبيدة بنت جعفر بن المنصور	٧
طالع السعد	٨
المشهد الأول لزوج الرشيد	١٤
سيدة القصر	١٧
بداية الصراع	٢٠
ولاية العهد	٢٣
أم ولي العهد	٢٥
مثال نادر	٢٩
أبواق الرحيل	٣٢
الخطب الجلل	٣٥
من مآثر زبيدة	٤٢
وفاتها	٤٧
المراجع	٤٨
أسئلة	٤٩
الفهرس	٥١